الفصل الثالث
واقع التربية الوافدة فى العالم الإسلامى

تناولنا فيما سبق القسم الأول من الكتاب الذى هو مدخلنا لتناول أزمة التربية فى العالم الإسلامى ألا وهو «التربية وبناء الأجيال» واشتمل كما سبق المدخل والغزو التربوى والثقافى والتعليمى عبر مدارس الإرساليات والتعليم الوطنى وعالج المؤلف ذلك فى إطار الدراسة التاريخية على المستوى الأفقى، ونحن الآن بصدد القسم الثانى من الكتاب **ويتناول الدراسة الموضوعية على المستوى الرأسى**، وقد عالج المؤلف هذا القسم فى بابين رئيسيين:

الباب الثانى: واقع التربية الوافدة فى العالم الإسلامى وآثارها.

الباب الثالث: التربية والتعليم والثقافة فى إطار الإسلام.

فى الباب الثانى يلقى المؤلف الضوء على واقع التربية الوافدة فى العالم الإسلامى فى فصلين عالج فى الفصل الأول أوجه الخلاف بين المناهج، وفى الفصل الثانى تعرض لأوجه النقص فى الاقتباس وصولا - كما سنرى فى الباب الثالث والأخير - إلى تبيان تقديم البديل العملى فى مجال التربية والتعليم والثقافة فى إطار عام، ويرى السيد المؤلف أن ثلاثة مناهج تربوية وتعليمية مطبقة فى البلاد الإسلامية وهى: فرنسية وانجليزية وأمريكية ولو أن السيطرة الأمريكية جاءت متأخرة عن سيطرة الثقافتين الفرنسية والانجليزية فى مجال الفكر التربوى، يقول السيد المؤلف: «وقد كانت هذه المناهج الثلاثة الفرنسية والانجليزية والأمريكية قد وضعت فى بيئاتها وطبقا لظروف هذه البيئات وأوضاعها ثم تطورت وتغيرت مرة بعد مرة فى مواجهة ما كان يواجهها من تجارب، ثم نقلت هكذا إلى أنظمة التعليم الغربية دون مراعاة فوارق البيئة أو تباين العصر أو اختلاف الثقافة والعقائد»(١).

---

(١) التربية وبناء الأجيال ص: ١١٣.

– ويعرض المؤلف لأوجه الاختلاف والتناقض مبينا نظرة التربية ومناهج الغرب بالنسبة (للدين) حيث تجاهلت المناهج الأوربية (الدين) باعتبارها مناهج علمانية « لا دينية » ولتلك قصة فى الصراع بين الكنيسة والعلماء أو بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى أوربا وتاريخها، الأمر الذى لا يشبه من قريب أو بعيد الدين « الإسلام » حيث لا صراع بين العلم والدين بل وئام مطلق وليس ثمة صراع أيضا بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية حيث إن الإسلام دين ودولة وعقيدة وشريعة والمسلمون يرون دينهم منهج حياة يستضئ بنور القرآن وهدى النبى العظيم محمد بن عبد الله ﷺ، يقول المؤلف : « وإذا كان الغرب قد أقام نظريته فى التربية والتعليم على أساس إبعاد الدين عن التربية وفق تجربته مع المسيحية الغربية فإن الأمر كان مختلفا مع الإسلام الذى هو ليس دينا فحسب، ولكنه فكر وحضارة ومجتمع والذى لم يقف موقف الصدام مع المعطيات العلم أو حركة التقدم، فلظروف خاصة بالغرب انفصلت مناهج التربية والتعليم عن الدين الغربى، ولكن هذه الظروف لم تواجهها المجتمعات العربية الإسلامية، ولم تكن مناهج التربية والتعليم الإسلامية قادرة على أن تنفصل عن الإسلام الذى هو بمثابة الأساس المكين لكل مقومات المجتمع والعلم » (١).

– ويواصل المؤلف عرضه لمفهوم التربية الإسلامية وركائزها يقول « والتربية الإسلامية تقوم أساسًا على بناء الشخصية الإنسانية على أساس الإيمان بالله والمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى وهذا يعنى أن فصل مقومات الخلق والعقيدة عن التربية الإسلامية من شأنه أن ينشئ شخصية هشة ضعيفة لا تعرف مسؤولياتها إزاء مجتمع يواجه التحدى الخطير الدائم من قوى الاستعمار الغربية المتسلطة بالغزو العسكرى والسيطرة الاقتصادية » (٢).

الخلاف فى مفهوم التربية :

بَيْدَ أن أبرز نقاط الاختلاف بين التربية الأوربية والأمريكية بمناهجها جميعا

(١، ٢) التربية وبناء الأجيال ص : ١١٤.

وبين التربية الإسلامية ينصب كما يرى المؤلف فى مفهوم التربية ذاته حيث إن الأوربيين والغربيين بصورة عامة يرون فى التربية الوسيلة لإعداد الأجيال لمواجهة التغير فى المجتمعات «وفهمنا نحن فى العالم الإسلامى والعربى يتمثل بالشمول والعمق فى مفهوم التربية، يقول المؤلف «إن مفهوم التربية وفلسفتها بصفة عامة فى الغرب يتعارض مع مفهوم التربية الإسلامية، ذلك أنها تحاول أن تقدم للحدث المفاهيم الأولية للحياة مستمدة من نظريات الفكر الغربى، فالإنسان حيوان كما تقول نظرية التطور وتنطبق عليه تشريحات الحيوانات والحشرات ، والجنس هو مصدر كل التصرفات كما تقول نظرية فرويد، والتطور حركة مطلقة كما تقول نظرية التطور بدون حدود أو ثوابت والأخلاق نسبية لأنها مرتبطة بالعصور والبيئات متغيرة والإنسان جسد فحسب وليس هناك نفس أو روح، والدين من مخلفات العصور البالية سواء كان أفيونا للشعوب كما تقول الماركسية أو سلاح الإقطاعيين والأمراء كما تقول الديمقراطية والجنس الأبيض تاج الخليقة وصانع الحضارة وهناك جبرية فى التاريخ أو حتمية فى المادة.

هذه هى الخطوط العامة التى تقوم عليها تربية النشء، وهى مضادة تماما لمفهوم الإسلام، فالإنسان فى الإسلام سيد الكائنات وهو مستخلف فى الأرض ولكنه ليس سيدا مطلقا بل مسؤولا، وليس حيوانا مطلقا ولكنه روح ومادة ونفس وجسم، ولا تطبق عليه تشريحات الحيوانات والحشرات لأنه يتميز بالعقل والإرادة والجنس ليس مصدر كل التصرفات وليست المادة مفسدة وحدها للتاريخ ولكن الجنس والمادة عاملان بين عدة عوامل منها الدين والعنصر والمناخ» (١).

وليس الخلاف بين التربية الغربية بمدارسها المختلفة وبين التربية الإسلامية حول مفهوم التربية فقط ولو أن ذلك من أبرز أوجه الخلاف وإنما يتناول المؤلف وجوها أخرى لأوجه الاختلاف مثل إلحاح التربية الأوربية والغربية لاعتبار الدين

---

(١) المصدر السابق ص ١٢١.

مسألة شخصية ولا علاقة لها بالدولة ولا بالمجتمع « وهذا مالا يقره الإسلام ولا يعترف به فالدين أساسًا منهج حياة ونظام مجتمع. ولذلك فإن نظرية فصل الدين عن الدولة نبات غربى لا ينمو فى بيئة المجتمع الإسلامى كذلك فالإسلام لا يعتبر الدين عائقا فى سبيل النهضة أو التقدم بل يعتبره معينا وساعدا » (١).

وينبه المؤلف أيضا إلى الخلط بين العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية والتى دعا بعض أعلام النهضة الحديثة من أمثال الدكتور طه حسين ولطفى السيد وسلامه موسى وغيرهم إلى اقتباس علوم النهضة من الأوربيين ومتابعتهم فيما أحسنوا وفيما أساءوا وهنا يلفت المؤلف انتباهنا إلى هذه المغالطة الكبرى والتى روجتها المدارس والجامعات الأجنبية فيما يتصل بما يسمى بالعلوم الإنسانية التى تتصل بالتاريخ وعلم النفس والأخلاق والعلوم الاجتماعية والفنون.

يقول المؤلف « أما العلوم الإنسانية فإن للعرب والمسلمين مفاهيم فيها تختلف عن مفاهيم الغرب، مستمدة من ثقافتهم وقيمهم وعقائدهم ولذلك فإن إصرار هذه الجامعات التى هى إرساليات تبشيرية فى الأساس على تدريس هذه المواد من شأنه أن يخرج أجيالا لا تفهم مجتمعها وقيمها إلا من وجهة نظر الغرب وطبق مقررات الاستشراق، وهى وجهة نظر مخالفة تماما لمفهوم الغرب ومعارضة تمامًا لأصالتهم ولأهوائهم » (٢).

وفى الفصل الثانى من الباب الثانى يعرض المؤلف لأوجه النقص فى الاقتباس مشيراً بداءة إلى مشلكة الثنائية فى التعليم أو الازدواجية وهى نتيجة مباشرة للغزو الثقافى فى مجال التعليم بسعى الاستعمار لفرض نظام تعليمى حديث يستغنى به عن المعاهد العلمية العريقة مثل الأزهر فى مصر والقرويين والزيتونة فى بلاد المغرب العربى، وباختصار شديد أراد الاستعمار الإتيان بنظام تعليمى حديث يتخرج فيه شباب لا صلة لهم بالإسلام وكتابه المقدس القرآن

---

(١) السابق ص ١٢١.

(٢) المؤلف ص ١٢٢.

الكريم ولا قدرة له على المقاومة ومن ثم يوجه فئة متميزة من أبناء الوطن الواحد تدخل فى صراع مع الطبقة القديمة التى تخرجت فى الجامعات العتيقة متهمة إياها بالجمود والرجعية لا لشئ إلا لكونها تخرجت فى معاهد تقوم الدراسة فيها على القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يضمن المستعمر الدخيل أن يوجد فريق تتلمذ على يديه وأعجب به وبحضارته الأوربية ونظرته للكون والحياة وسرعان ما يساعده المستعمر ليتولى زمام الأمور فى بلاده فيما بعد فلا يُبدي – من ثم – تمسكا بالقرآن ولا حرصاً على أن يقيم حياته وفق منهج القرآن والهدي النبوى الشريف ويكون ولاؤه أخيراً لأوربا والغرب، وهذا ما تحقق فى بلاد الإسلام حتى غداً الإسلام يُحارب من بنيه وتصطدم الشعوب بالحكومات فى صراع بين ما هو كائن من غربة لهدى القرآن وقيم الإسلام وما ينبغى أن يكون من اعتماد الشريعة الإسلامية ونظام الإسلام منهاج حياة ودستور أمة، كانت الازدواجية – إذن – قد أحدثها فرض أسلوب التعليم الاستعمارى الغربى بهدف إقصاء منهج الأصالة والإسلام تمهيدا لإقصاء النفوذ السياسى والاجتماعى لعظماء الإسلام وتقليص دورهم القيادى فى قيادة الشعوب وتولى زمام أمورها، حيث يشهد التاريخ فى بلاد الإسلام أن الذى قاد الثورات الشعبية وحافظ على بلاد الإسلام واحتفظ لها بهويتها وأصالتها هم العلماء، وفى العصر الحديث هناك فى الجزائر ابن باديس وفى المغرب الفاسى وفى مصر عمر مكرم وغيرهم ممن ثاروا على الفساد السياسى وقاوموا سلطان الأجنبى، وينقل المؤلف عن الدكتور ظفر أحمد الأنصارى تصريحا عن الأضرار المترتبة على وجود هذه الازدواجية فى التعليم فى البلاد الإسلامية فى صورة نظامين تعليميين يقول الدكتور الأنصارى «هذان النظامان المتنافران يتيحان نوعين من الناس ذَوي نظرتين مختلفتين إلى الحياة وغير قادرين على إدراك وجهة نظر كل منهما.

ويشير الدكتور الأنصارى إلى أثر النظام الوافد فى التعليم فيقول: إن العقول التى شكلها هذا النظام التعليمى قد غلب عليها الإعجاب المطلق الذى لا

تحفظ فيه والتقليد الكامل لكل ما هو أجنبى، وهى بشكل عام عاجزة عن التمييز بين التقدم العلمى من ناحية والمثل الثقافية من ناحية أخرى. وأنها كانت سببا فى نشأة جيل مجتث الأصول الثقافية »[1].

ويستمر المؤلف فى توضيح الأضرار الناجمة عن الازدواجية أو الثنائية فى التعليم بدعم وجهته بأحد كبار المربين، ممن تتلمذوا على أيدى الأوربيين والأمريكان الدكتور محمد فاضل الجمالى وهو من العراق وقد درس التربية الأمريكية على يد وليم كلبتراك أحد أساطير التربية الأمريكين، بَيْدَ أن أستاذنا الجمالى قد بحث فى ضرورة التربية الإسلامية وقرأ على ما أعتقد – كل أو معظم ما كتب فى هذا المجال وأنتجته القرائح بقلب مفتوح وضمير سليم ونية طيبة فجاء بخير كثير وقدم خلاصات بحوثه فى صورة فكر تربوى جديد لا هو بالشرقى ولا هو بالغربى، ثم إن أستاذنا المؤلف يستشهد بحديث لأستاذنا الدكتور الجمالى فى تبيان الآثار الضارة الثنائية التعليم فى البلاد الإسلامية وازدواجيته والتى أهمها (الانشطارية والثنائية فى الكيان الاجتماعى والفكرى للأمة)، وقد صور هذا دكتور فاضل الجمالى حين قال:

« لا شك ساعدت التربية الغربية كثيرا على توسيع آفاق اختيارات الشعوب الإسلامية وذلك بتوعية هذه الشعوب وجعلها تدرك موقعها فى عالم اليوم، ولكن التربية الغربية تحمل فى طياتها جراثيم التفسخ الاجتماعى والأخلاقى والروحي للعالم الإسلامى، ولذا وجب دراسة انتقادية »[2].

حول الآثار الخطيرة للاقتباس عن التربية الغربية:

ويجمل المؤلف نقلا عن الدكتور محمد فاضل الجمالى الآثار الخطيرة للاقتباس الفاسد فى سبعة آثار:

«**أولا**: إن التربية الغربية ولا سيما تلك التى تقدمها المدارس الأجنبية أو

---

(١) السابق ص ١٣٢.

(٢) السابق فى التربية وبناء الاجيال ص ١٣٣.

المدارس الوطنية التى تقلد الغرب قد تهمل أحيانا اللغة القومية فتكون النتيجة أن الطبقة المتعلمة تستعمل فيما بينها لغة أجنبية.

ثانيا: فى اقتباس التربية الغربية تتجه العناية فى الغالب إلى القالب أو المظهر أكثر من الحقيقة والجوهر إنما الطالب المسلم اليوم قد يُعاني ويقلق من أجل الشهادة واللقب العلمى أكثر من اهتمامه بالضبط العلمى.

ثالثا: اقتباس التربية الغربية يؤكد عادة على عملية الحفظ أكثر من التأكيد على التفكير والتعليم.

رابعا: إن الذين ينالون قشرة من الثقافة الغربية يصيبهم الغرور والادعاء والبعض الآخر يعوذهم التكيف.

خامسا: التأكيد حتى الآن على النوع الأكاديمى فى التربية الغربية وذلك على حساب التربية العملية والتقنية.

سادسا: الكثير ممن ينالون الثقافة الغربية لا يعرفون شيئا كافيا عن دينهم ولا عن حضارة أمتهم وجذورهم الروحية.

سابعا: فضلا عن اعتيادهم «فى الأغلب» على المشروبات الكحولية والانغماس فى التمتع بالشهوات والتحلل الخلقى»[1].

ثم يتساءل المؤلف على حال التعليم الآن فى بلاد الإسلام وقد تخلى الاستعمار عن أغلب بلاد العالم الإسلامى فيقول: «والآن وقد تخلى الاستعمار عن أغلب بلاد العالم الإسلامى فهل زالت هذه الروح من مناهج التعليم؟ صحيح أنها زالت من حيث الإطار العام ولكنها لا تزال باقية مسكنة فى أعماق البرامج والمفاهيم تقديرا للغرب وللحضارة الغربية وإيمانًا بها وولاء لها، ودون ما قدرة على إثارة الروح الإسلامى ومفاهيمه وقيمه وبناء أجيال جديدة عليه.

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٤.

فما زالت البلاد الإسلامية عاجزة عن ذلك نتيجة تلك الطلائع التى ما زالت تسيطر على أنظمة التعليم وتحول دون تغييرها » (١).

● وغنىٌّ عن البيان أن التربية عملية ذاتية تخص كل أمة، فالمنهاج التربوى فى أمة ما لا يصلح فى أمة أخرى، لأن التربية عملية ذاتية تخص كل أمة على حدة فهى – من ثَمَّ – عملية إعداد وتثقيف ونمو لأبناء الأمة وفق قيم الأمة وعاداتها ومثلها العليا، وفى دراستنا لتاريخ التربية والتربية المقارنة أدركنا أن التربية عملية غير قابلة لعمليات التصدير والاستيراد ومن الغريب أن نرى النظام التربوى فى أمم الدنيا كلها فى الشرق الشيوعى (*) والغرب الليبرالى يصدر عن قيم الأمة وتصورها للكون والحياة والخط العقائدى لها « الأيدلوجى » ثم يكون ذلك أمراً منكورا علينا نحن المسلمين فى بلاد الإسلام ويراد لنا ومنا أن ننقاد بصورة عمياء فى اتباع مناهج التربية الأوربية والأمريكية، ويعرض السيد المؤلف لرأى العلامة الموهوب الشيخ أبو الحسن الندوى شيخ القارة الهندية قوله « فى الغرب لا يسمح للمواد التى تبذر بذور الشيوعية والماركسية وتستهزئ بفكرة الملكية وتضخُّم الثروة وتنظيمها على غير أسس الشيوعية والماركسية ولا يسمح ولا يفكر فى استيراد أقل عدد من الأساتذة السوفيت مهما بلغوا من البلاغة والإبداع والتفوق فى العلوم والفنون، كذلك لا يسمح قادة التربية والتعليم فى الغرب باستيراد منهج تعليمى من بلد إلى بلد ولو كانا يلتقيان فى العقيدة والفكرة الأساسية فى الاجتماع والنظرة الواحدة إلى الإنسان والحياة والكون » (٢).

ومن الغرب الأمريكى يقول البروفسير كانانت « إن عملية التربية ليست تعاطيًا، وبيعا وشراء، وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد من الداخل، إننا فى فترات التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الانكليزية أو الأوربية إلى بلادنا الأمريكية » (٣).

---

(١) السابق ص ١٣٧.
(٢) المؤلف فى المصدر السابق ص ١٤٠.
(٣) المصدر السابق ص ١٤١.
(*) كُتب هذا الكلام قبل سقوط الشيوعية البغيضة وزوال الاتحاد السوفيتي البائد (المؤلف).

وما كان ذلك كذلك إلا لخطورة الدور الذى تلعبه المدرسة فى صياغة النشء وتشكيل عقلهم ومشاعرهم وتغير نظام المجتمع بصورة عامة بتغيير أفكاره وصياغة مشاعره عبر مجموعة الخيرات والمهارات والاتجاهات التى تكسبها المناهج للمتعلم عبر الفصول والمعلمين، يقول الأستاذ الكاتب «ونحن نعرف أن المدرسة هى التى تستطيع أن تغير نظام المجتمع بما لا تقدر عليه سائر المؤسسات الاجتماعية، وأن طريقة الإصلاح تكمن فى عبارة (أرسموش) التى يرددها الغربيون ونأخذ منهم كل شئ عميانا مصفدين ولا نصغي إلى الحقائق التى يمكن أن تنير لنا الطريق يقول أرسموش: «سلمنى إدارة التعليم ردحا من الزمن، أتعهد لك بأن أقلب وجه العالم بأسره».

لست أدرى كيف نعرف هذه الحقائق ثم يصر رجالنا على عزل الإسلام عن مقومات مناهج التربية والتعليم ويخدعوننا بأن يجعلوا الدين مادة تدرس»[1]. أى يجعل الدين مادة رئيسية بين مواد الدراسة، والمطلوب أن يكون الدين روحا عامة تسرى فى كل الخبرات والمهارات والاتجاهات التى تدرس كما يجرى الدم فى العروق.

وفى نهاية هذا الفصل الذى خصصه المؤلف لـ«أوجه النقص فى الاقتباس» عن الغرب يحدثنا عن حصاد الاقتباس من نظم التربية الغربية فى العالم الإسلامى يقول: «هذه الصورة من أثر اقتباس (نوع) من أنواع التربية الغربية إلى العالم الإسلامى والمجتمع الإسلامى، وقد رأينا مثل هذه الآثار واضحة وعميقة وبعيدة المدى والأثر فيما أصيب به المسلمون فى السنوات الأربعين الأخيرة من نكبات ونكسات»[2].

* * *

(١) التربية وبناء الأجيال ص: ١٤٢. (٢) المصدر السابق ص ١٤٨.